

## الاستبداد زاد في عزلة المثقفين العرب ومنعهم من التوحد

مفارقة الواقع وإنكار إحدائياته، لأن ثمة مياها كثيرة جرت تحت جسر الأفكار الهاجعة في بطون الكتب. انطلق التقرير من حقيقة أن جيل الشباب الحالي يمثل أكبر كتلة شبابية تشهدها المنطقة على مدى السنوات الخمسين الأخيرة، إذ أنهم يمثلون 30 في المئة من سكانها الذين يبلغ عددهم 370 مليون نسمة. وبإمكان هذه الطاقمة البشرية تحقيق طفرة حقيقية ومكاسب كبيرة في مجالات التنمية، وتعزيز الاستقرار، وتأمين هذه المكاسب على نحو مستدام، ولكن مثل هذه النتيجة تستدعي، بحسب التقرير، إصلاحات على ثلاثة مستويات:

الأول "يرتبط بالسياسات النازمة للعقد الاجتماعي بين الدولة ومواطنيها، وهيكل الاقتصاد الكلي، وتوسيع الفرص المتاحة للجميع، بمن فيهم الشباب". أما الثاني "يركز على السياسات القطاعية، ولاسيما في مجالات التعليم والصحة والتوظيف.. لتوسيع نطاق حريتهم في الاختيار"، والثالث "يتناول السياسات الوطنية المعنية مباشرة بالشباب، والتي ينبغي أن تتجاوز نهج إيجاد الحلول.. لتضمن مشاركة سياسية أوسع في وضع السياسات العامة، ومراقبة تخصيص الموازنات، وتعزيز التنسيق بين الجهات كافة، ومتابعة التنفيذ والتقدم نحو إنجاز الأولويات".



موسى برهومه  
كاتب وأكاديمي أردني

أجفل، ويعتريني القلق عندما اسمع عبارة "دور المثقفين العرب". ولعل مرد ذلك هو أنني نفضت يدي، منذ زمن بعيد، من دور ما يمكن للمثقف العربي أن يؤديه. بدأ هذا الإحساس مع انهيار الأطروحات المؤسسة للقومية والوحدة العربية، منتصف القرن الماضي، وتعاطف مع الهزائم العربية في مواجهة إسرائيل، التي قضمت وما تزال ساعية بشهية مفتوحة إلى السيطرة على الفضاء العربي برمته، فيما المثقفون، المنزورون لدور ما، مختبئون في عزلاتهم، وخلف ترسانة أوهامهم.

ولما سقط الاتحاد السوفييتي كورق الكرتون الهش، وتمزق الشموخ الثوري، بدت النظرية الماركسية، للوهلة الأولى، مليئة بالثقوب، وأضحت الهوة سحيقة بين الخطاب والممارسة. وبعدما انفجرت انتفاضات الربيع العربي، تكشف أن غالبية المثقفين الماركسيين انحازوا للطغاة، وخانوا عهدهم القديم مع البروليتاريا، وحرصوا على النقاط الصور التذكارية مع السفاحين والقتلة، وباركوا أعمالهم، وقبّلوا أياديهم الملطخة بدم الشعب والأطفال، أو الطبقة الكادحة والعمّال والشغيلة، والبشر بصفة عامة.

بل الأتني من ذلك، أن أولئك "الرفاق" تحالفوا، وهم أحفاد المادية التاريخية، مع الأنظمة الثيوقراطية الغارقة في الخرافة والراقة على جمر ظهور "المهدي المنتظر". كانت تلك المحطات كغلبة بسقوط أسطورة "المثقف الماركسي" أو قل "المثقف اليساري"، علماً بأن غالبية المثقفين العرب، أو نسبة كبيرة منهم ينتسبون إلى ذلك الخطاب الثوري الذي فجرته الماركسية في صعودها المؤدي في مواجهة "الإمبريالية" وقوى التوحش الاقتصادي في العالم.

واستمررا، وخشية التعميم، فإن هناك مثقفين عربا اختاروا الاتجاه الليبرالي المزج بنبذة يسارية، وثمة من اختار الاتجاه العلماني، ليطلق لنفسه العنان في تامل الحرية، بعدما أطبقت الأنظمة الشيوعية والاشتراكية على أنفاس البشر، وحوّلت البلاد إلى كانتونات من عبدة أو ببغاوات ترد ما يقوله الزعيم الخالد الذي أضيفت عليه صفات القداسة أو "الكهنوت".

هذه التحولات التي عصفت بالقرن الماضي، وغيرها كثير يصعب حصره في هذه المساحة، جعلت الكل منثوراً لخدمة الكل، فسبق الملايين إلى الموت دفاعاً عن الملايين التي تنتظر الخلاص من الظلم والظفر والاستعمار والاستبداد. وقد تسلسلت هذه الخطابات إلى لاوعي المثقف العربي المعاصر، مع أنها جزء أصيل من الثقافة العربية الإسلامية، ومرجعياتها الدينية التي تحض على التمسك الجماعة، وتنبيذ، بلا وعي أيضاً، الفردية، وترى فيها انشقاقاً، حتى عندما كان يتم الحديث عن الذات العربية، ظل يقصد بها الجماعة، وليس الفرد الذي يتم الاعتراف به، فقط، بوصفه جزءاً من المجموع، أو يُرغى صغيراً في ماكنة عملاقة، ولا استقلالاً ذاتية له، وهذا ما أسهب في شرحه وتفكيكه هشام شرابي.

ويكشف تقرير "التنمية الإنسانية العربية للعام 2016: دور الشباب وأفاق التنمية واقع متغير" الذي أصدرته الأمم المتحدة، معطيات مهمة، تجعل الحديث عن المثقفين العرب ودورهم ضرباً من

## في عصر بين بين اختلطت مفاهيم الذات والجموع

في كل منعطف تاريخي كان هناك فرد يقول شيئاً مختلفاً



تعريف الجموع سهل (لوحة للفنان سيوران باران)

لشخص عاصر الخمسينات وفكر الاستقلال والتحرر من الاستعمار الغربي، تبدو خيارات الهجرة وترك البلاد العربية نحو الغرب كارثة. آخر عاصر المد القومي في الستينات، يبدو الحديث عن المد الديني الذي ابتلع المنطقة كابوساً. لثالث اعتبر أن العقلانية في السبعينات هي المنظومة الفكرية الأقل عاطفية والأكثر اعتدالاً لتحقيق الأهداف الوطنية، يصير نسق التشظي على أسس غيبية وطائفية نوعاً مبكراً من نهاية العالم. لرابع شهد الحرب العراقية الإيرانية في الثمانينات، تكون صور القادة الإيرانيين في بغداد اليوم فانتازياً عصية على التصديق.

لا شك أن الأمثلة كثيرة وتمتد تاريخياً وسياسياً واجتماعياً. لكن هذا دليل على أن الجموع الفكرية فكرة ماثلة رغم ما تبدو عليه من قوة لحظية توحى بانها وجدت لتبقى. دوام الحال من المحال.

اليوم نعيش عصراً بين بين. التطبيقات للتواصل الاجتماعي غيرت المعادلة تماماً. شعبية فكرة اطاحت بمفهوم المثقف والسياسي، وجموع تتشكل حول هاشتاغ في تغريدة على تويتر أو تدوينة في فيسبوك ثم تتفرق،

لتنشك من جديد. لا أعرف كيف يمكن تعريف الذات أو الجموع الآن. لعل المفكرين (وهم الأقرن على السمود في هذا الواقع المتعرج) هم من سيرد على هذه التساؤلات المتجددة. لا أعرف إن كان يحق لنا أن نسهم في هذا الجدل الفكري، ولكننا نشير إلى ما نراه ونحاول أن تكون مادة البحث هذه بوصفاً من الحائرين بين الذات والجموع، العجز عن العثور على أجوبة الآن هو في صلب التغيير. ولعل هذا هو التوصيف الأوضح لما يحدث. ولعل المفكرين سيردون بالقول إن اللجوء هو التشخيص المنطقي لأن الأجوبة تحيلنا إلى مشهد التناقض الذي نعيشه ونقف عاجزين عن فهمه.

عندما تشتعل الحروب  
الأهلية يحتمي أغلب الناس  
بجموعهم المتشابهة، عرقياً  
أو دينياً أو عائلياً وغيرها،  
فيتوقف منطق العقل  
وتشتغل غريزة البقاء

ربما لا نملك أجوبة واضحة حول التغييرات الطارئة على البشر اليوم في مختلف جوانب حياتهم. تتعدد القراءات والمقاربات، لكن المتفق عليه هو أننا بصدد تغيير كبير، سنرى خلاله وجهاً آخر للبشر والبشرية. لكن من سيكشف هذا الوجه أو الوجوه غير المفكرين، والمفكرين أنفسهم أين هم من الواقع ولماذا غابوا عن اللحظات الكبرى التي تبدو فيها الإنسانية أمام صورتها المجهولة ومصانرها الأكثر غموضاً؟

بعضها متدين، الآخر يفضل أكل الرز، والآخر يستمتع بالموسيقى الكلاسيكية. في المجتمعات الأكثر بساطة، يمكن التعميم. تعريف الجموع سهل. تعريفات

طائفية أو عرقية مثلاً. هنا تبدو الخيارات شحيحة، وفي بعض الأحيان خائفة. في المجتمعات المازومة تصبح هذه الخيارات إجبارية أو تفرض الطاعة. عندما تشتعل الحروب الأهلية يحتمي الناس بجموعهم المتشابهة. يتوقف منطق العقل وتشتغل غريزة البقاء.

في أفضل الحالات يكون الصمت من ذهب، في أسوأها، يجد المعنى نفسه عسداً في الحرب. تكون الورطة في الخيارات السابقة كبيرة إلى درجة أن البعض يجد الحاجة إلى إعادة كتابة تاريخه الشخصي ليغيره من إحساس وطني مثلاً أو قومي، إلى تبني الطائفي والعنصري.

ما هي خيارات مسيحي محاط ببيئة إسلامية تكفره؟ ما هي خيارات سني في بيئة تحكمها ميليشيات شيعية؟ ما هي خيارات شيعي أمام حكم داعشي؟ النتيجة مسيحي مهاجر أو سني غير اسمه أو شيعي يسب رموزه السابقة. أين العبد في مثل هذا الحشر؟

### عصر بين بين

التعامل مع الجموع الفكرية ربما أسهل. نعرف سياسيين تبدلوا بين البحث والشوعية والمأوية والليبرالية والإسلاموية، تبدلت بلا حد أدنى من الإحساس بالذنب. تعرف مثقفين غيروا جلودهم حسب المواقف. نفس الشاعر يمدح ثم يهجو. نفس الكاتب الذي يشيد ثم يسخر. أشباه المثقفين يمكن أن يتقبلوا خلال جلسة حوار واحدة.

هيثم الزبيدي  
كاتب عراقي  
مقيم في لندن

يقال "حشر مع الناس عيد". توصيف مخيف لانعدام الخيارات والمعالم الشخصية. الإنسان بمركبته الغريزية مجبول ضد هذا التوصيف. أشك أن الإنسان الطبيعي يتقبل أن يجري عليه ما يجري على الآخرين. كل يوم نرى أنواعاً من التأكيد على عدم الخضوع لهذا التوصيف. كل مهاجر يعبر الحدود أو يلقي بنفسه في البحر للوصول إلى ضفة أفضل، هو عملياً يسجل احتجاجه على "حشره" مع آخرين لأسباب جغرافية أو وطنية أو اجتماعية.

### الاحتفاء بالمجموعة

كل كاتب يكتب خارج نسق التعرّف التقليدي للأسراب السياسية والدينية هو شخص محتج. كل مثقف يفكر بحثاً عن خيارات خارج هذا الحشر الافتراضي إنما يؤكد أن الخيارات تبقى مفتوحة مهما كان الواقع سوداويًا. كل سياسي يعاند الواقع في بلده أو في إقليمه ليدفع نحو البديل والتغيير هو ضد استلاب المجموع.

هؤلاء ليسوا متمردين، على الأقل ليسوا كذلك بالمعنى التقليدي للتمرد. إنهم تذكير بخيارات الإنسان. إن مثل هذه الخيارات هو ما دفع الإنسانية للارتقاء والوصول إلى ما وصلت إليه. في كل منعطف تاريخي غير من مسيرة البشرية كان هناك فرد يقول شيئاً مختلفاً. هذا المختلف هو ما صاغ التاريخ وليس ترديد المعتاد والمألوف. سؤال الذات والجموع هنا لا يصح. الجموع مواصفات عامة لكل بشرية.

المثقف فقد دوره حينما  
فقد صوته، واختار القطيع  
بل كثير من المثقفين  
أصبحوا أبقااً لأنظمة  
استبدادية

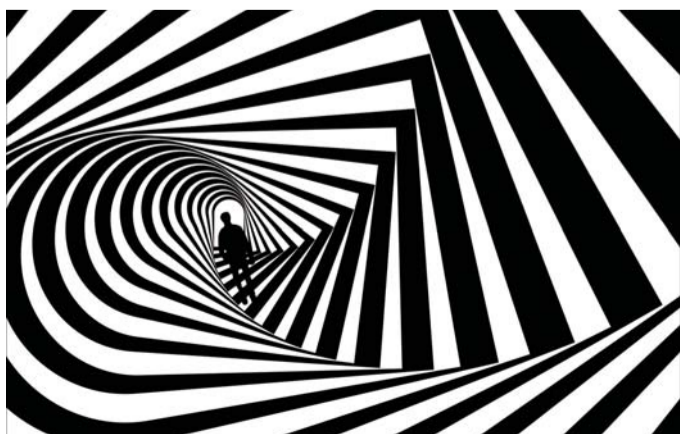
وما لم يستطع أن يرصد التقرير، أو لم يكن في نطاق بحثه، هو أن الصورة الحالية للنظام السياسي العربي أشد تفتتاً مما كانت عليه قبل أربع سنوات، حين أنجز التقرير الأممي. وما نحن في أواسط العام 2020 (الذي توقع التقرير حلوله أن يكون ثلاثة من كل أربعة عرب يعيشون في منطقة "معرضة للنزاع") وننظر إلى خارطة العربية، فنرى الأغام المتفجرة والمقبلة على الانفجار، في غالبية الدول العربية، ما يؤذن ببغاوات ترد ما يقوله الزعيم الخالد الذي أضيفت عليه صفات القداسة أو "الكهنوت".

هذه التحولات التي عصفت بالقرن الماضي، وغيرها كثير يصعب حصره في هذه المساحة، جعلت الكل منثوراً لخدمة الكل، فسبق الملايين إلى الموت دفاعاً عن الملايين التي تنتظر الخلاص من الظلم والظفر والاستعمار والاستبداد.

وقد تسلسلت هذه الخطابات إلى لاوعي المثقف العربي المعاصر، مع أنها جزء أصيل من الثقافة العربية الإسلامية، ومرجعياتها الدينية التي تحض على التمسك الجماعة، وتنبيذ، بلا وعي أيضاً، الفردية، وترى فيها انشقاقاً، حتى عندما كان يتم الحديث عن الذات العربية، ظل يقصد بها الجماعة، وليس الفرد الذي يتم الاعتراف به، فقط، بوصفه جزءاً من المجموع، أو يُرغى صغيراً في ماكنة عملاقة، ولا استقلالاً ذاتية له، وهذا ما أسهب في شرحه وتفكيكه هشام شرابي.

ويكشف تقرير "التنمية الإنسانية العربية للعام 2016: دور الشباب وأفاق التنمية واقع متغير" الذي أصدرته الأمم المتحدة، معطيات مهمة، تجعل الحديث عن المثقفين العرب ودورهم ضرباً من

ينشر كاملاً بالاتفاق مع «الجديد»  
الثقافية الشهرية اللندنية



المثقف العربي في متاهة (لوحة للفنان دينو أحمد علي)